تاريخ الإرسال: 2013/09/18 - تاريخ القبول للنشر: 2013/11/26 تاريخ النشر: 2013/12/23

موقف المغرب الأقصى من الاحتلال الفرنسي للجزائر 1830

محمد الشيخ برابح

جامعة الجلفة

إن المتتبع لمسار العلاقة بين الجزائر والمغرب الأقصى يقف عند حالة من التداخل والانصهار في العديد من المجالات، فكان المغرب وطيلة عقود أرضا خصبة لأهل الجزائر،(1) وكان لاحتلال مدينة الجزائر سنة 1830، وقعا كبيرا في منطقة المغرب العربي خلال القرن 19 لما له من أهمية بالغة في تغيير مسار المنطقة كلها سياسيا وثقافيا. (2)

لكن المتتبع لمجمل الدراسات التي عالجت هذا الحدث لا تزال مضطربة حول مدى مسؤولية طرف من أطراف العالم العربي والإسلامي في سقوط مدينة الجزائر، ويظهر ذلك جراء التقاعس في عدم مد يد العون والمساعدة للجزائر ولزعماء المقاومة الشعبية بمجابهة جيوش الاحتلال. (3)

أما أشقاؤنا المغاربة الذين تطرقوا لحملة 1830 وما تابعها اتفقوا على أن السلطان عبد الرحمن لم يقصر في تعاطفه مع الجزائر أثناء محنتها،(4) ذلك التآزر الذي ظهر بدءا من الحصار البحري الفرنسي على شواطئ الجزائر سنة 1827. (5)

وأثناء الحملة ودخول الجيوش الفرنسية أرض الجزائر وبداية توسعها نحو الداخل فقد أبدى السلطان تعاطفه مع الأسر والعائلات الجزائرية، التي اتخذت من الهجرة نحو المغرب أسلوبا لرفض الاستعمار، وأبدى استعداده لاستقبال الداي حسين نفسه،(6) بل إن السلطان بعث لعماله في مدينة تطوان رسالة تضمنت تقديم العون والمساعدة للجزائريين الهاربين بدينهم خوفا من القتل والبطش. (7)

أما الكتاب الفرنسيون فقد ذهبوا في تقديرهم لموقف السلطان بأنه رأى في الحماية الفرنسية التي احتلت الجزائر مؤشر خير وعبر عن ارتياحه بسقوط الأتراك في الجزائر الذين طالما هددوا ملكه وسلطته،(8) واعتبار نهاية حكم العثمانيين بالجزائر يعني تحول شرعية الخلافة الإسلامية إليه شخصيا وانفراده بذلك في بلدان المغرب

العربي. (9)

ورغم كل ذلك فإن سقوط الجزائر بيد الفرنسيين يسبب للسلطان عبد الرحمن مشاكل كبيرة خاصة على الحدود الشرقية، كما كان يخشى على سمعته جراء خذلانه للجزائر خاصة مع صعود اسم محي الدين وابنه عبد القادر الذي سيصبح رمزا للجهاد الإسلامي ضد الكفار والمقاومة الكبيرة التي أظهرها، جعلت الأشقاء المغاربة يتابعون باهتمام تطور الأوضاع في الجزائر. (01)

ويتضح أن موقف السلطان ورغبته لم تظهر على أرض الواقع حيث ظهر السلطان منذ البداية الأولى غير مكترث بما يجري على حدوده الشرقية، وبقي طيلة سنوات يتفرج على مجريات الأحداث دون الدخول في مواجهة مباشرة وحاسمة مع الفرنسيين، وأحيانا يقوم بمساندة ودعم غير علني للمقاومة وكأنه لا يريد إغضاب السلطات الفرنسية التي كانت تراقب الأحداث عن قرب. (11)

وربما اتخذ السلطان هذا الموقف لالتزامه بعدم التدخل في الصراع بعدما أحيط علما ببداية الاحتلال من طرف القنصل الفرنسي في طنجة، وربما التزامه هذا جعله يقف موقف الرافض بعدما قدمت إليه وفود تلمسان لتقديم البيعة له،(21) لكن كل ذلك لم يقف أمام طموح السلطان بعدما ظهر جليا أنه يسعى لبسط نفوذه على مناطق الغرب الجزائري،(31) بعدما أرسل نائبه مبعوثا عنه إلى تلمسان وهو مولاي علي ابن مولاي سليمان مدعوما بخمسمائة جندي وشرع يعمل على تشجيع القبائل الجزائرية على بيعة السلطان. (41)

و أكثر من ذلك فإن القوات المغربية التابعة للسلطان دخلت إلى عمق الجزائر، ووصلت إلى غاية ملیانة، وصار مولاي على يحي يجبي الضرائب، واتخذ تلمسان مقر الإمارة والنيابة،(51) وبقيت الأوضاع على نفس النحو ولم يتراجع السلطان بقواته إلى غاية 1832 بعدما تغيرت المعطيات والظروف الميدانية لصالح القوات الفرنسية،(61) وبداية المقاومة الشعبية للأمير عبد القادر والداعية للاستقلال التام عن أي تدخل خارجي(71).

كان الأمير عبد القادر يشعر بقوة الخطر الداهم وتخوفه من أن ترابط القوات الفرنسية عبر كامل الطرقات والمسالك وتقطع عنه الاتصال، لذلك بدأ في التفكير بالاتصال بقوى خارجية أوروبية يمكنه استعمالها في الضغوط على فرنسا، فبدأ اتصالاته بالبريطانيين عام 1836، لكن لم يحصل تقدما كبيرا بين الطرفين،(81) رغم تكرار الأمير مراسلته مع انجلترا،(91) وكذلك الأمر بالنسبة لاتصاله بالأمريكيين في نفس السنة 1836،(02) لكن المحاولتين فشلتا لأن الأمير لم يكن له سمعة وشهرة واسعة خارج فرنسا والجزائر. (12)

ومن الجانب المغربي اتصل مبعوث الحكومة الفرنسية «البارون فريديريک دولارو» بالسلطان ووصل إلى طنجة ثم انتقل إلى مكناس في صائفة 1836، لكي يقدم احتجاجات بلاده على المساعدة المغربية للأمير

ويطلب بإلحاح وقف كل تدخل من المغرب، ورغم أن البعثة الفرنسية، لقيت مواجهة ومعارضة وصلت إلى حد رميه بالحجارة وإطلاق الرصاص على البارون حتى أصيب في إحدى عينه،(22) ومع ذلك رجعت البعثة بالتزام قدمه مبعوث السلطان محمد الطيب البياز مضمونه التوقف عن تقديم الدعم للأمير وعدم التآمر ضد السيادة الفرنسية في الجزائر. (32)

ورغم هذا الالتزام الذي قدمه السلطان إلى البارون فريدريك دولارو، إلا أن الرجل كان مشهودا له بالمبادئ السامية وغيرته على دينه وشعر بأن الغزاة داسوا عن كرامته والحقيقة أن الموقف الذي وقع فيه السلطان جعله بين أمرين أحلاهما مر، فرأى أن يجمع بين ميوله الشخصية ومخاوفه السياسية على عرشه وسلطانه وذلك بأن لا يقدم شئ للأمير.(42)

وعليه أوقف إمداداته وتسهيلاته العسكرية بسبب ضغوط الفرنسيين عليه،(52) ومن جهة ثانية شعر السلطان بخطورة الأمير الذي أصبح يشكل خطرا على نفوذه وسلطانه خاصة بعد أن أصبح محل إعجاب المغاربة. (62)

هذا في الوقت الذي تقدمت فيه فيالق من الجيش الفرنسي في إحدى مناطق المغرب الشرقية، وهي منطقة لالة مغنية وأقدمت عناصر الجيش على تهديدهم الصريح الذي كان محل احترام من طرف السكان فثارت ثائرتهم،(72) ووجد السلطان نفسه أمام غضب شعبي كبير فأرسل جيشه إلى المنطقة للثأر من تدنيس المعالم الدينية المغربية. (82)

انطلقت المواجهة بعد أن طلب الجيش المغربي الفرنسيين بالخروج من منطقة لالة مغنية في 22 ماي1844، على لسان علي بن القناوي،(92) فسخر الفرنسيون من طلب المغاربة، وفي 30 ماي 1844 هاجم أفراد الجيش المغربي القوات الفرنسية، وبعد أيام وصل الجنرال بيجو إلى لالة مغنية وكان ذلك في حدود 11 جوان 1844 وحاول الطرفان إجراء لقاء لتصفية الأجواء لكن القوات المغربية تقدمت نحو المكان، مما دفع الفرنسيين للتراجع وتنظيم أنفسهم وطلبوا الدعم العسكري استعدادا للمواجهة، وبعد وصول الدعم رد الجيش الفرنسي بقيادة بيجو على الجيش المغربي وكانت الهزيمة كبيرة وأجبر المغاربة على التراجع والفرار نظرا للخسائر الكبيرة.(03)

بعد تراجع الجيش المغربي جراء هذه الهزيمة بدأت مرحلة جديدة في تاريخ المغرب الأقصى بدأ فيها الصراع المباشر بين الطرفين، أعلنت فيها فرنسا شروطا كبيرة على السلطان كعدم إيواء الأمير وتفرقة جيشه النظامي ورفض هجرة القبائل الجزائرية نحو المغرب الأقصى،(13) هذه الهجرات التي دفعت بها القبائل الجزائرية وشجعت أبناءها للهجرة نحو الدخول إلى المدن المغربية حفاظا على دينهم و أرواحهم وسلامتهم. (23)

كما دفعت فرنسا بقطعة من أسطولها البحري نحو الساحل الشمالي المغربي،(33 وأمر بيجو جيشه بالهجوم على المغرب عن طريق البر وهو الهجوم الذي انتهى بحادثة «اسيلي» المشهورة بيوم 04 / 08 / 1844 .(43) هذه الحادثة التي وضعت حدا لقدرة المغاربة على الحفاظ على استقلالهم وبروز ضعف الدولة المغربية واضحا أمام الدول الأوروبية.(53)

إن تلك العلاقة التي بدأت بين الجزائر ممثلة في الأمير عبد القادر والسلطان المغربي عبد الرحمن بدأت بروابط أخوية حيث أرسل السلطان مساعدات للأمير وحمى قوافله عبر أراضيه واستمرت العلاقات بين الطرفين إلى غاية تدخل الفرنسيين، مما أدى إلى رضوخ السلطان المغربي عبد الرحمن للمطالب الفرنسية واعتبار الأمير خارجا عن القانون ويهدد مصالح الطرفين لذلك يجب ملاحقته.(63)

بعدما ضمنت فرنسا عداء سلطان المغرب للأمير عبد القادر بمقتضى معاهدة طنجة (10 سبتمبر 1844)، وعملت على محاصرة الأمير داخل التراب المغربي ليتسنى لها بذلك مضايقة مولاي عبد الرحمن ووضعه أمام الأمر الواقع للوفاء بوعوده،(73) اعتنى الجنرال ديلاري والرائد مارتمبري (martimpry) برسم ووضع الحدود الجزائرية المغربية وفقا للوثائق العثمانية ليتم السلم نهائيا بين فرنسا والمغرب الأقصى على حساب الجزائر والأمير، ووقع الجنرال ديلاري وممثل السلطان في وجدة على معاهدة لالة مغنية في 18 مارس 1845، والتي تنص على ترسيم الحدود واعتراف المغرب الأقصى بسلطة فرنسا على الجزائر.(83)

وانطلاقا من هذا فإن المجال الحيوي الذي كان بمثابة المنطقة الآمنة للجزائريين والأمير عبد القادر وهو التراب المغربي (الجهة الشرقية)، فضلا أنها تعتبر منطقة عبور لإمداداته العسكرية وسندا له خاصة من طرف الشعب المغربي، قد أقفلت في وجهه وأصبحت منطقة غير آمنة للأمير بموجب معاهدة طنجة ومعاهدة لالة مغنية لذلك نجحت فرنسا في صناعة هوة واسعة بين الأمير عبد القادر وسلطان المغرب. (93)

ويمكن اعتبار المعاهدتين من الأهمية بمكان لأنهما تضعان طريقا جديدا، في العلاقات بين المغرب مع الجزائر من جهة ومع فرنسا في الجزائر من جهة ثانية، والمهم هو أن المعاهدتين تقحمان المغرب بطريقة مباشرة في قضية الجزائر وذلك من خلال :

- قبول مشروعية مطاردة الأمير عبد القادر مع بقية الجزائريين من طرف فرنسا وحكام و سلاطين المغرب الأقصى.
- اعتراف السلطان المغربي بالسلطة الفرنسية في الجزائر. (04)

لم تتوقف فرنسا عند هذا الحد في إحداث القطيعة بين السلطان عبد الرحمن والأمير عبد القادر بل

أرسلت مبعوثها ليون روش،(14) في 21 نوفمبر 1845 إلى بلاط السلطان بفاس ولما دخل روش إلى السلطان بادره بقوله أن الأمير يهدد عرش المغرب أكثر مما يهدد فرنسا، لذلك وجب العمل على إخضاع القبائل المغربية التي تساند الأمير ومنه تدفق هجرات الجزائريين باتجاه الحدود المغربية. (24)

توصل روش إلى إقناع السلطان المغربي مولاي عبد الرحمن بخطورة الوضع الذي بات يهدد عرشه حتى أن السلطان اعتبر الأمير عبد القادر هو من يقف وراء تصاعد الأخطار ضد عرشه ووصل به المطاف إلى إرسال قواته في الأشهر الأخيرة من سنة 1847، للقضاء على الأمير والعمل على إخضاع ومضايقة القبائل الجزائرية وإجبارها على الرجوع إلى الجزائر.

لذلك حاول الأمير في هذه الظروف الصعبة والحرجة الاتصال بإسبانيا عن طريق حكامها العسكريين بمليلة بحثا عن المساعدة المادية وفك الحصار المضروب عليه والتوسط له مع الفرنسيين.(34)

خاصة بعد أن اتضحت خيانة سلطان المغرب ومطاردته بجيوشه ومنع القبائل من مساعدته أواخر 1847 فقد وقف السلطان سدا منيعا أمام الأمير في استمرار مقاومته ضد الاستعمار،(44) وفي ظل تسارع الأحداث التي كانت كلها ضد الأمير، بدأ في التفكير في الاستسلام وتمت مناقشة فكرة التسليم هل تكون للفرنسيين أم المغاربة وبعد استشارة واسعة حدد الأمير موقفه قائلا:

«....أما أنا فإنني أفضل ألف مرة أن أثق في من حاربني على من خانني...»،(54) وكان ذلك في ديسمبر 1847. (64)

وقد خيّر الأمير أتباعه في حرية تقرير مصيرهم، وعمل على تشجيع المئات من أتباعه باختيار المغرب كوجهة آمنة للاستقرار، ونصحهم باختيار قبائل ومدن بعينها لمعرفته الكاملة بأوضاع المغرب الأقصى ومدنه. (74)

ويمكن اعتبار الأمير أنه قد ساهم بشكل واضح في عملية تحسين صورة المغرب الأقصى لدى المهاجرين الجزائريين الذين عملوا بنصيحته واتخذوا من الأراضي المغربية قبلة لهجرتهم ومستقرهم هناك وازدادت بعد ذلك موجات الهجرة نحو المغرب الأقصى.

إن هذه التطورات والأوضاع التي شهدها المغرب الأقصى سيكون لها تأثير كبير على أحداث المنطقة على العموم والمغرب على الخصوص.

حيث عرف نهاية القرن 19 وبداية القرن 20 المزيد من التغلغل الأوروبي في المغرب الأقصى وهو ما جعل الكثير من المؤرخين الأوروبيين يذهبون إلى تسمية فترة نهاية القرن 19 هو تاريخ بداية التغلغل الأوربي في المغرب الأقصى أوبداية تاريخ القضية المغربية.(84)

الهـوامـش

1 – عمار هلال، العلماء الجزائريين في البلدان العربية والإسلامية،ط 2 ، ديوان المطبوعات الجامعية ، 2010 ص108.

2 – Turin Yvonne' affrontements culturels dans l'Algérie coloniale 1830–1880' E.N.A.L' Alger .1983.p 123

3 – محمد الطيب العلوي ، مظاهر المقاومة الجزائرية ، منشورات المتحف الوطني للمجاهد ، الجزائر 1994 ص 27

4 – علال الفاسي، الحركات الاستقلالية في المغرب العربي دار الطباعة المغربية ، تطوان دون تاريخ، ص 102

5 – إبراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ ج 3 ، ط 1، دار الرشيد الحديثة، الدار البيضاء 1985 ، ص127

6 – داود محمد ، تاريخ تطوان، ج8، الرباط 1979 ، ص 170

7 – ابراهيم حركات، المرجع السابق، ص 196

8 – Gabriel Esquere' la prise d'Alger1830 édition d'Afrique' Alger '1923 ;p59

9 –V' Bernard ' l'affaire marocain Paris 1906' p 59

10 – حركات ، المرجع السابق، ج3، ص 187

11 – حركات ، المرجع السابق، ص ص 187 – 188

12 – الناصري أبو العباس أحمد، الاستقصاء في أخبار دول المغرب الأقصى، ج 8، الدار البيضاء، دون تاريخ، ص87

13 – شارل هنري تشرشل، حياة الأمير عبد القادر، تر أبو القاسم سعد الله، الدار التونسية للنشر، تونس، 1974، ص52

14 – الناصري، المصدر السابق، جزء 9، ص 31.

15 – هنري تشرشل، المصدر السابق، ص 189

16 – حركات، المصدر السابق، ج 9، ص 190

17 – نفسه، ص 191

18 – أبو القاسم سعد الله، أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1978، ص 300

19 – عبد الجليل التميمي، بحوث ووثائق في التاريخ المغربي، 1816– 1871، الطبعة 1، الدار التونسية للنشر، 1972، ص 213

20 – سعد الله، المرجع السابق، ص 306

21 – نفسه، ص 309

22 – حركات المرجع السابق، ص 306

23 – داود محمد ، المصدر السابق، ص 297

24 – تشرشل، المصدر السابق، ص 222

25 – حركات، المرجع السابق، ص 201

26 – نفسه، ص 211

27 – تشرشل، المصدر السابق ، ص 223

28 – حركات، المرجع السابق، ص 199

29 – علي بن القناوي هو عامل وجدة ، تولى قيادة الجيش المغربي مع مولاي المأمون، أنظر حسن صبحي، المرجع السابق، ص 92

30 – تشرشل، المصدر السابق ، ص 224

31 – تشرشل، المرجع السابق ، ص224

32 – محمد عبد السلام ابن عبود، تاريخ المغرب ، ج 2، دار الكتاب ، الدار البيضاء، 1963 ص74

33 – حركات، المرجع السابق، ص 202.

34 – ابن عبود، المرجع السابق، ص 75

35 – علال الفاسي، المصدر السابق، ص 85.

36 – أديب حرب، التاريخ العسكري للأمير عبد القادر، ج 1، دار الرائد للكتاب، الجزائر 2005، ص86.

37 – يوسف مناصرية، مهمة ليون روش في الجزائر والمغرب، م.و.ك، الجزائر، 1990، ص 46

38 – راجع نص المعاهدة في مذكرة ماجستير بعنوان "مواقف دول غرب المتوسط من الاحتلال الفرنسي للجزائر"،للطالب محمد الشيخ برابح، معهد التاريخ ، جامعة الجزائر ، 2007

39 – اديب حرب، المرجع السابق، ص 112.

40 – الناصري، الاستقصاء، المصدر السابق، ج 9، ص 58

41 – ليون روش: ولد سنة 1809 وصل إلى الجزائر 1832 عين مترجما في الجيش الفرنسي بالجزائر، التحق بالأمير سنة 1837 أصبح من ثقاته ومساعديه، عمل جاسوسا على الأمير، انتقل ليعمل سفيرا لبلاده في طنجة.

42 – يوسف مناصرية، المرجع السابق، ص 52

43 – يحي بوعزيز، «اللقاء التاريخي بين الأمير عبد القادر وحاكم مليلة الأسباني عام 1847» مجلة الثقافة، ع75 الجزائر، 1983، ص 115

44 – أديب حرب، المرجع السابق، ص 49

45 – تشرشل، المصدر السابق، ص 246

46 – حركات، المرجع السابق، ج 3، ص 215

47 – الناصري، المصدر السابق، ج 3، ص 79

48 – حسن صبحي، التنافس الاستعماري الأوروبي في المغرب (1884 –1904)، الطبعة 1، دار المعارف، مصر، 1965،، ص 112